IJHER International Journal of Humanities and Educational Research
ISSN: 2757-5403
Volume 4, Issue 4, August 2022

Received: 12/06/2022 **Accepted:** 09/07/2022 **Published:** 01/08/2022

SCIENTIFIC ACTIVITY IN ANDALUSIA, THE ERA OF THE KINGS OF SECTS, AS A MODEL

Ahmed Nagy NAYYEF[1]

Dr, Diyala University, Iraq

Abstract

The first period of the Islamic presence in Andalusia witnessed severe turmoil in political affairs and the outbreak of conflict between the Qaisi and Yemeni fanatics. Of course, these local disputes did not leave much time to care for the development of mental and scientific life in Andalusia, despite the political decadence and military weakness that the Muslims of Andalusia suffered in The era of the kings of the sects, and that one of the reasons that helped in the scientific development in Andalusia is the mixture between the Latin and Arab civilizations, and from it produced the first roots of the Andalusian civilization, and then helped the prosperity of the Andalusian civilization, including the Arab science. The scientific life in that era was strong and prosperous, and that is why many writers considered the fifth century AH – the eleventh century AD – the golden age for the scientific life, when the scientific movement reached its peak and apogee at that time among the Muslims of Andalusia. And since the topic of the research is: focusing on scientific activity in Andalusia in the era of the cults kings, and that the space is not wide enough to delve into all branches of science, so the focus will be on some branches of science, including medicine and pharmacology, and with reference to some of the biographies of scholars who emerged until the end of the era of cult kings.

Key words: Scientific Activity, Andalusia, The Era of The Kings of Sects.

http: //dx.doi.org/10.47832/2757-5403.15.41

[1] Ahmednaji186812@gmail.com

النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف انموذجا

أحمد ناجي نايف
د.، جامعة ديالى، العراق

الملخص

شهدت الفترة الأولى للوجود الإسلامي في الأندلس اظطراباً شديداً في الشئون السياسية واندلاع الصراع بين العصبيتين القيسية واليمنية، وبطبيعة الحال لم تترك هذه المنازعات المحلية كثيرا من الوقت للعناية بتنمية الحياة العقلية والعلمية في الأندلس، وبالرغم من الانحطاط السياسي والضعف العسكري الذي منى به مسلمو الأندلس في عصر ملوك الطوائف، وان من الأسباب التي ساعدت في التطور العلمي في الأندلس هو الامتزاج بين الحضارتين اللاتينية والعربية ومنه اثمر المنابت الأولى للحضارة الأندلسية، ومن ثم ساعد على ازدهار الحضارة الأندلسية بما فيها العلم العربي. فقد كانت الحياة العلمية في ذلك العصر قوية ومزدهرة ولهذا عد كثير من الكتاب القرن الخامس الهجري –الحادي عشر الميلادي – العصر الذهبي بالنسبة للحياة العلمية حيث بلغت الحركة العلمية الذروة والاوج وقتذاك عند مسلمي الأندلس. ولما كان موضوع البحث هو: التركيز على النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف وان المساحة لا تتسع للخوض في كل فروع العلم،لذلك سيتم التركيز على بعض فروع العلم منها الطب والصيدلة وبالإشارة إلى بعض من سير العلماء الذين برزوا حتى نهاية عصر ملوك الطوائف.

الكلمات المفتاحية: النشاط العلمي، عصرملوك الطوائف، الأندلس.

المقدمة

أصبحت قرطبة على عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط مركزا حضارياً عظيماً وغدت حاضرة المسلمين في الأندلس مركزاً للازدهار العلمي والتقدم الإداري والنشاط الفكري، ثم لم تلبث أن تنشط في الأندلس فمنذ عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر وبفضل تشجيعه ان تزايد نشاطها الأدبي والفكري بتأثير مشرقي ايضا، فاصبح هذا الخليفة بحق حامي العلوم والآداب، ثم تزايدت هذه الحركة الأدبية والعلمية في عهد خلفه الحكم المستنصر الذي أبي إلا أن يكن هو نفسه من العلماء، فارسل من خيرة رجال الأندلس إلى أنحاء العالم الإسلامي لابتياع الكتب أو استنساخها، ووفق في جمع مكتبة غاية في الثراء تقدر محتوياتها بأربعمائة الف كتاب، كما كانت فهارس كتبها تملأ اربع واربعين جزءا. وكانت من نتائج هذه النهضة العلمية أن عصر ملوك الطوائف وبفضل علماءها دخل الأندلس الكثير من مؤلفات المشارقة فتدارسوها واضافوا اليها. وقد استمر ازدهار الآداب والعلوم حتى بعد سقوط الخلافة الأموية ويمكن القول أنها ((الحركة العلمية)) نشطت عن ذي قبل، فاستكثر ملوك الطرائف في مختلف دويلاتهم من مهاد الحضارة الخصبة، وعلى الرغم من تبعية الأندلس لدولة المرابطين بالمغرب إلا أنها لم تقف عثرة دون تقدم العلوم والازدهار فاستمرت الحركة العلمية في تقدم وازدهار.

ولما آلت الأندلس إلى دولة الموحدين بالمغرب لم يتوقف النشاط العلمي الأندلس، بل استمر حتى ايام مملكة بني نصر في غرناطة، وأن الدور الهام الذي اضطلع به الأندلس كان قد وصل إلى غايته، ويمكن القول أن سر النهضة العلمية لهذا القطر الإسلامي تكمن وراء تكريم الخلفاء والأمراء للعلم والعلماء والإعلاء من شأنهم ولما كان موضوع البحث هو تسليط الضوء على النشاط العلمي في الأندلس عصر ملوك الطوائف وأن المجال لا يتسع للكتابة في كل فروع العلم، فأننا سوف نقصره على بعض فروع العلم، الطب والصيدلة والفلك، وذلك باستعراض تاريخ بعض العلماء والوقوف من خلال مصنفاتهم عن النتاجات العلمية بوجه عام في الأندلس.

ففي مجال الطب يمكن القول أن الذين نقلوا هذا العلم من المشرق إلى الأندلس هم الأطباء النصارى، يذكر ابن جلجل ((أنه لم يكن في الأندلس لغاية اميرها عبدالرحمن بن الحكم الا اطباء نصاري يعتمدون في علمهم ودراستهم على كتاب مترجم من كتب النصارى، يقال له الابريشم ومعناه المجموع))، ويرجح أنه كتاب الفصول Aphorismi لابقراط). (جلجل،1955، 92). وهذا يؤكد على دخول الكتب الطبية من المشرق في هذا العصر، واستفادة العلماء منها، فابن جلجل نفسه ينقل في كتابه ((طبقات الأطباء والحكماء))، اقوالا من كتب ابقراط وجالينوس وغيرهما، وليس من المستبعد أنه ينقل عن الترجمات العربية التي وصلت اليه من المشرق. هذا وقد ورد في ترجمة اسحاق الطبيب أنه لما ((ظهرت دولة

الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، فتتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين))، (جلجل،1955، 97).

وهناك من الدلائل التي تؤكد على دخول كتب العلوم إلى الأندلس في عصر متقدم، فكتاب الحشائش لديسقوريدس (Dioscorides) بترجمة اصطفن بن باسيل واصلاح حنين بن اسحق، كان معروفاً عند الأندلسيين إلى عصر عبد الرحمن الناصر، يذكر ابن جلجل في مقدمة كتابه((تفسير اسماء الأدوية المفردة))، ان كتاب الحشائش في اصله اليوناني دخل في الأندلس وكان معروفاً(جلجل،1955، 22)، ذلك أن هذا الكتاب ترجم إلى العربية في بغداد،غير أن المترجم له واسمه اصطفن بن باسيل لم يترجم إلى العربية سوى جزءا من اسماء الادوية لعدم معرفته بما يقابل اليونانية فيها، ولهذا ظلت اسماء باقي النباتات على صورتها اليونانية بحروف عربية(العبادي،1986، 388). وعندما ورد هذا الكتاب الأصلي بلغته اليونانية هدية من امبراطور بيزنطة ارمانيوس Romanus إلى الخليفة الناصر،هدية مع هدايا أخرى، ارسل له الامبراطور البيزنطي بعد ذلك راهباً يدعى نيقولا، الذي وصل إلى قرطبة وقام بترجمة الكتاب مرة اخرى بالاشتراك مع بعض اطباء بلاط الناصر منهم حسداى بن شبروط الاسرائيلي، وقد اعتنى بذلك الكتاب جميع من ألف في المفردات الطبية عناية كبيرة مابين شرح وتفسير واستدراك وتصحيح من الأندلسيين منهم ابن جلجل في كتاب ((تفسير اسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس))، والشريف الادريسي، في كتابه ((الجامع لصفات اشتات النبات)) واستدرك فيه على ما اغفله ديسقوريدس وضياء الدين بن البيطار، الذي استوعبه في كتابه ((الجامع في الأدوية المفردة)) (جلجل، 1955، 22). بالإضافة إلى دخول كتب العلوم المشرقية إلى الأندلس، فقد كان لرحلات الأندلسيين لطلب العلم إلى مشرق العالم الإسلامي الأثر الكبير في نمو الحركة العلمية في الأندلس، ففي عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر رحل إلى بغداد اخوه الحراني وهما أحمد بن يونس واخوه عمر، وتأدباً في بغد بالطب، ثم انصرفا إلى الأندلس ودخلاها في خلافة الحكم المستنصر فالحقهم لخدمته بالطب واسكنهما مدينة الزهراء، ومات عمر بعلة في المعدة، وبقى أحمد الذي كان بصيراً بالأدوية المفردة وصانعاً لها(جلجل، 1955، 22). فتولى إقامة خزانة بالقصر الخلافي للطب لم يكن قط مثلها، ورتب لها اثنى عشر صبياً طباخين للأشربة، وصانعين لها، واستأذنه أن يعطى منها من احتاج من المساكين والمرضى فأباح له ذلك(جلجل، 1955، 22).

وفي القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، برز في الأندلس اسرة من كبار الأطباء الأندلسيين هي اسرة بني زهر، التي انجبت سلسلة كاملة من مشاهير الطب، وأول شخصية مشهورة من هذه الأسرة، هو ابو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي الاشبيلي، المولود في مدينة اشبيليه وكان قد رحل إلى المشرق فدخل القيروان ثم مصر وتطبب هناك زمنا، ثم رجع إلى الأندلس والتحق بخدمة مجاهد العامري صاحب دانية بالطب، وذاعت شهرته في مدينة دانية بتقدمه في صناعة الطب، ثم انتقل إلى مدينة اشبيلية زمن بني عباد(ابي اصيبعة،1958،481)، وقد تطبب على يده عدد من المرضى لفطنته في التشخيص وبصيرته النافذة، فضلاً عن خبرته الطويلة في هذا المجال ولاستخدامه على وجه الخصوص أدوية فعالة، وظل بمدينة اشبيلية إلى وفاته (ابن ابي اصيبعة،،1958،518).

وثاني شخصية من هذه الاسرة الطبيب ابي العلاء زهر بن ابى مروان عبد الملك محمد بن مروان الذي حظي في دولة المرابطين بمكانة كبيرة، ومنزلة رفيعة، اشتغل بصناعة الطب وهو صغير منذ أيام المعتمد بالله ابى عمرو عباد بن عباد، ثم خدم بعد ذلك زمن المرابطين بعد تبعية الأندلس لها، وصنف العديد من كتب الطب منها: كتاب الخواص، وكتاب الأدوية المفردة، وكتاب الايضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق في كتاب المدخل إلى الطب، وكتاب حل شكوك الرازي على كتب جالينوس، ومجريات، ومقاله في الرد على ابن على بن سينا في مواضع من كتاب الادوية المفردة(ابي اصيبعة،1958، 517).

وثالث شخصية من هذ الأسرة أبو مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك مروان بن زهر، الذي تعلم على يد أبيه في صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء في الأدوية المفردة والمركبة، حسن المعالجة، وقد ذاع صيته في الاندلس، الف في الطب، واعانت مؤلفاته اطباء الأندلس في تفهم هذه الصنعة، حتى أنه لم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة اعمال صناعة. خدم ابو مروان دولة المرابطين بالطب، وحظى بمكانة مرموقة لديهم، خدم بعد ذلك دولة الموحدين على عهد عبد المؤمن بن علي، الذي قرب إليه أهل العلم وأكرمهم، وتمتع أبو مروان بمنزلة خاصة لديه فقد((كان مكنيا عنده، عالى القدر، متميزاً على كثير من ابناء زمانه))، (ابي اصيبعة،1958، 520). كما أشار أبو مروان إلى قيمة التجربة مثل والده أبو العلاء، وقد تتلمذ عليه الدارسين في صناعة الطب منهم أبو الحسن بن اسدون، وأبو بكر بن الفقيه القاضي أبى الحسن قاضي اشبيليه، وابو محمد الشذوني، والفقيه الزاهد ابو عمران بن ابي عمران (ابي اصيبعة،1958، 520).

اما الشخصية الرابعة والأخيرة من اسرة بني زهر التي اشتهرت بمهنة الطب، هو ابو بكر محمد بن ابى مروان بن ابى العلاء بن زهر، ولد في اشبيليه سنة 504 هـ/١١١٠م، ونشأ بها، وتميز في العلوم، وباشر أعمالها، وكان صائب الرأي حسن المعالجة، جيد التدبير، وقد حظى بثقة الخلفاء الموحدين، ومن مصنفاته كتاب الترياق الخمسيني الذي الفه للمنصور الموحدي، ورسالة في طب العيون، (ابي اصيبعة،1958، 520).

وفي نهاية القرن الخامس الهجري، نشطت حركة الاسترداد في شرق الأندلس، فاضطر عدد من علماء الأندلس إلى الهجرة إلى المغرب ومن بين هؤلاء ابي اسحق بن طملوس المولود في جزيرة شقر، تعلم الطب على يد الطبيب ابى محمد عبد الله بن ابي الوليد محمد بن احمد بن رشد، رحل ابو اسحق إلى مراكش والتحق بخدمة الخليفة الموحدى الناصر بالطب، ثم عاد إلى الأندلس، (ابي اصيبعة،1958، 530).

وفي غرناطة، برز بعض الاطباء، مثل ابن السراج، وكان طبيبا للسلطان محمد الثاني الفقيه، نال شهرة فريدة لنزاهته، فنال ثناء كل من ترجم له، إذ حرص على علاج الفقراء بالمجان (العسقلاني،1929، 315)، كما وهب لهم ثلث دخله. والطبيب محمد فرج الصفار الذي التحق بخدمة سلاطين بني نصر بالطب، فاتخذوه طبيبا لهم في بلاطهم ((بوادي آش))، فقد كان جراحا ماهرا وعشابا بارزا(ابن الخطيب،1972، 180). ويلاحظ ايضا في هذا العصر الاهتمام بالمعارف الجديدة في مجال الطب، تمثل في مداومة الرحلة العلمية إلى مشرق العالم الإسلامي للاطلاع والاستزادة من تقدم الطب هناك، فعلى سبيل المثال سافر ابو تميم غالب الشقوري إلى القاهرة للاستزادة من تقدم الطب هناك.(ابن الخطيب،1972، 180) كما برز ايضا في غرناطة عدد من الأطباء الذين تمتعوا بشهرة منهم ابو زكريا يحيى ابن هذيل، وكان من شيوخ لسان الدين بن الخطيب(ابن الخطيب،1972، 258) وصفه ابن الخطيب بأنه ((درة بين الناس معطلة. وخزانة على كل فائدة مقفلة))، (عنان،1966، 468). والطبيب عبد الله محمد اللخمي الشقوري حفيد أبو تميم غالب الشقوري،من جزيرة شقر ومارس الطب في البلاط الغرناطي على عهد كل من يوسف الأول ومحمد الخامس الغني بالله، ثم اضطر إلى الهجرة إلى المغرب فأقام في تلمسان، كتب عدة رسائل في الطب منها رسالة في الطب الشعبي، ومجربات في الطب. ومن المؤلفات الطبية الاندلسية المشهورة، الكتاب الذي ألفه لسان الدين بن الخطيب وعنوانه ((عمل من طب لمن حبه))، وهو مؤلف طبي كبير، تناول فيه ابن الخطيب الأمراض المختلفة، مع ذكر أسباب كل مرض، وأعراضه وطرق علاجه، وتحوطاته، ونظام الغذاء الذي يناسبه، كما يتحدث عن مختلف أعضاء الجسم، وطرق العناية، ذكر ابن الخطيب في مقدمة الكتاب ((إنه لم يجد لخدمة السلطان أبي سالم المريني أفضل من الطب، فألف له هذا الكتاب تعبيراً عن حبه لهذا السلطان))،(ابن الخطيب،1972، 76). إلى جانب ثلاث رسائل اخرى لابن الخطيب نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر وهي عن الوباء الكبير الذي عصف بالأندلس عام،الأولى بعنوان: ((مقنعة السائل في المرض الهايل))، الذي يصف فيها أعراض المرض الكبير.والرسالة الثانية من تأليف ابى جعفر خاتمة الانصاري بعنوان ((تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد))، يصف فيها عصف الوباء، وسيره بمدينة المرية. أما الرسالة الثالثة والأخيرة كتبها الشقوري عن نفس المرض بعنوان ((تحقيق النبأ عن أمر الوبا))، (ابن الخطيب،1972، 86).

التطور العلمي في عصر ملوك الطوائف

مما لا شك فيه أن تلك النهضة العلمية في الأندلس، التي وصلت إلى مستوى مرموق في كثير مجالات العلم والمعرفة لم تنشأ من فراغ كما لم تكن وليدة يومها أو ليلتها وإنما جاءت نتيجة عدد من العوامل التي تضافرت على تهيئة المناخ المناسب لها ومن ثم النهوض بها... ومن أهم هذه العوامل:

أولا- حث الدين الإسلامي جميع المسلمين على التعلم وطلب العلم وقد تأصل هذا المبدأ عند مسلمي الأندلس منذ أن استقرت الأمور في الأندلس بعد أن فتحها المسلمون، حيث استشعر الجند الفاتحون أن مهمتهم ليست مقصورة على الفتح العسكري، بل هي إلى جانب ذلك فتح حضاري، كما استشعروا أن مسئوليتهم لا تنتهي بمجرد هزيمة العدو، وتثبيت أقدامهم في البلدان بل إنها من هنا تبدأ وتتأكد، وأن عليهم توفير حرية الاعتقاد للناس بكل ما تتطلبه هذه النقلة من مسؤوليات ومهام،- ولتحقيق هذا الغرض اصطحب أولئك الجند معهم حين عبروا إلى الأندلس عددا من العلماء والدعاة وذلك لدعوة الناس إلى الإسلام ولبيان حقيقة ما يدعون إليه فقد ذكر ابن عذارى أن موسى بن نصير بعث مع جيش طارق الذي دخل الأندلس سبعة عشر رجلاً من العرب ليعلموهم القرآن والإسلام وتضمن الجيش مجموعة من الجند الفقهاء كما ضم كبيراً من التابعين الذين دخلوا الأندلس مع طلائع المسلمين وأصبحوا دعاة إلى الله يعلمون الناس الإسلام واللغة العربية (ابن الخطيب،1972، 278) وبعد أن ثبت المسلمون أقدام تلك الديار لم يغفلوا عن متابعة نشر الإسلام وتعليم الناس، وكان من المهتمين بهذا الأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز و بعث عشرة من التابعين إلى أفريقية ليعلموا أهلها، وقد عبروا

البحر لمواصلة المهمة وهم عبد الله بن زيد المعافري الأنصاري وحبان بن جبلة وأبو بكر بن سودة الجزامي، وكانوا يعدون أحد كبار الفقهاء التابعين. وقد ظلت المسيرة العلمية في بلاد الأندلس مستمرة دون تعثر أو تأخر ولهذا ازداد النشاط العلمي شيئاً فشيئاً في بلاد الأندلس منذ أن دخلها المسلمون تسير جنباً إلى جنب)، (الحجي،1602،211). و كانت الحركة العلمية تزداد وانتشاراً، كما أخذ الناس بمختلف فئاتهم يقبلون على العلم والتعلم،ونجد هذا في المجتمع الإسلامي مثالاً محباً للعلم وأهله ونشأ أبناؤه على ذلك، لأن العلم فرض كما هي العقيدة الإسلامية فرض على كل مسلم ومسلمة، ولما كان المجتمع الأندلسي في عصر ملوك الطوائف عصر الازدهار العلم... مجتمعا متصلاً بما قبله حيث لم ينشأ في أيامهم فقط إنما هو تاريخ حافل بالعلم والعلماء في الأندلس، فقد أفاد ذلك الميراث الثقافي الذي خلفه لهم المسلمون خلال القرون الماضية حيث اقتات العلماء الأندلسيين على ما غرسه الأوائل في انفسهم، فبقوا مستمرين في حب العلم والتعلق به ويعتبر مصدر فخر لهم، وهذا دليل على تأصل هذا الاتجاه عند مسلمي الأندلس. حيث أصبح الناس في ذلك العصر على الرغم من الفوضى السياسية والضعف العسكري والانهزام النفسي الذي منى به الكثير منهم يقدرون العلم والتعليم ويسعون في طلبه مهما كان واقعهم السياسي والفكري حيث تعددت حلقات العلم كما انتشر العلماء وتوفرت الكتب في كل أنحاء بلاد الأندلس.

- **الميراث الثقافي الضخم الذي ورثه ملوك الطوائف** :

كانت الحياة العلمية بالأندلس قد بلغت مستوى جيدا في جميع مجالات العلم والمعرفة لا سيما في آخر عهد الخلافة وخلال حكمي عبد الرحمن الناصر،وابنه الحكم المستنصر،حيث عملا على تهيئة الأجواء المناسبة للعلم والتعليم كما قاما بمتابعة حلقات التعليم وتفقدها (ابن الابار،1963، 295).ثم رعى بعدهما هذه المسيرة المنصور بن أبي عامر الذي اهتم بالعلوم والمعارف عند توليه سياسة الدولة الأموية حيث لم يكن يشغله هذا الأمر سوى جهاده ضد النصارى . وقد تمخضت عن هذه الجهود نهضة علمية جيدة حيث أصبحت قرطبة في آخر عصر الدولة الأموية منارة للعلم يؤمها آلاف العلماء وطلاب العلم وصفها ابن بسام بقوله ((وكانت منتهى الغاية ومركز الراية نجوم الأرض وأعلام العصور وفرسان النثر والنظم وبها أنشئت التأليف الرائقة وصنفت التصانيف الفائقة ومن أفقها طلعت))، (الشنتريني،1339، 34) وقد تجلت هذه النهضة العلمية في عصر الخلافة في العديد من المظاهر ومنها

- كثرة الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق وذلك من أجل تحصيل العلم والمعارف ومقابلة علماء المشرق والأخذ عنهم، ونقل كتبهم ومصنفاتهم. وكان العلماء المشارقة الذين يفدون على الأندلس يلقون من لدن أهلها كل احترام وتقدير لما كان أصحاب السلطة هناك يهيؤون للاجواء العلمية المناسبة (عيسى،1982، 128).

- احترام العلماء وتقديرهم من قبل كافة شرائح المجتمع الأندلسي و الاهتمام بأماكن التعليم حيث لم تعد قاصرة على التعليم بالمساجد فقط تعدتها إلى أماكن أخرى حيث أنشأت الدولة مكاتب للتعليم في مدن قرطبة لكي يتعلم فيها أولاد الفقراء مجاناً، (ابن عذارى، 1983، 132).

- العناية بالكتب والمكتبات تأليفاً وجمعاً ففي ميدان التأليف شجع حكام الدولة الأموية من يقوم بهذه المهمة ولو كان خارج حدود الأندلس فقد كانوا يعفون من الغزو والمشاركة في المعارك، من يقوم بتأليف كتاب كما كانوا يبذلون الجوائز والمنح لمن يضطلع بهذه المهمة (ابن بشكوال،1955، 133).هذا وفي مجال جمع الكتب وإنشاء المكتبات نشطت هذه الحركة إبان تلك الفترة حيث أظهر الناس ((ولعاً شديداً بجمع الكتب والتنقيب عن نفائسها ونوادرها حتى قيل إنهم أشد الناس اعتناء بذلك وصار ذلك من سمات النبل والفضل والرياسة لديهم ولو كان جامعها وشاريها لا يقرأ ولا يكتب، ولقد كان من أهم المكتبات التي أنشئت في ذلك الوقت مكتبة الحكم المستنصر والتي قيل عنها إنها كانت تحفة، وبالإضافة إلى هذه المكتبة فقد كان هناك العديد من المكتبات الخاصة التي عنى بها عدد من الوزراء والعلماء الذين اشتهروا بمكتباتهم الضخمة،(ريبيرا،1903، 112) . ومن الاسباب التي ساعدت في حركة التاليف والترجمة،كثرة العلماء والمثقفين من ابناء المجتمع انذاك في الأندلس حيث كثرت الكتب المؤلفة وفي مختلف فنون العلم والمعرفة. كانت هذه أهم مظاهر النهضة العلمية في المجتمع الاندلسي عصر ملوك الطوائف، ومما يجدر ذكره أن هذه النهضة العلمية لم تكن محصورة في جانب معين من جوانب العلم بل مجالات العلم والمعرفة مما جعلها ميراثاً ضخما ورصيد نادرا أفاد منه، من جاء بعدهم، ذلك أن ملوك الطوائف لما ورثوا أشلاء الدولة الأموية بعد سقوطها وأقاموا على أنقاضها دويلاتهم المتعددة، انما ورثوا، أيضاً ذلك الرصيد العلمي الذي كان قد نما وازدهر في عصر الخلافة فقد تفرق العلماء في بلاد الأندلس حيث تنافس ملوك الطوائف في اجتذابهم نحو ممالكهم كما أصبحت قصورهم منتديات عامرة ومجامع للعلوم والآداب كما توزع العلماء في بلاد الأندلس، فقد انتشرت الكتب من المكتبات الخاصة والعامة التي جمعت كتبها في عصر الخلافة انتشرت جميعها في مدن الأندلس فكانت بمثابة إشعاع عم الأندلس جميعها وذلك لتوفر الكتب والمؤلفات في كل أنحاء الأندلس مما أحدث نشاطاً

متميزا متمثل بتوفر الكتب على مدى علمياً واسعاً(البشري، 1414، 120) من هذا يبدو لنا مدى ما كان لعصر الخلافة من أثر علمي قوي في عصر ملوك الطوائف، ((فلو أن... الحركة العلمية في عصر الخلافة كانت خاملة ضعيفة لكان يصعب .. ان نرى ازدهار وتطوراً في النشاط العلمي في عصر الطوائف خاصة أن الفترة التي استغرقها هذا العصر كانت لا تتجاوز تقريباً ستين سنة) (البشري، 1414، 120)

اهتمام ملوك الطوائف بالعلم والعلماء:

أولى ملوك الطوائف العلم والعلماء اهتماماً كبيراً حتى غدت قصور الكثير منهم منتديات علمية وفي هذا يقول الشقندي : «ولما ثار بعد انتشار هذا النظام ملوك الطوائف وتفرقوا في البلاد كان في تفرقهم اجتماع على النعم لفضلاء العباد إذ أنفقوا على سوق العلوم وتباروا في البذخ غلى العلم والعلماء والتاليف والترجمة والأدب منه ((المنثور، المنظوم)) فما كان أعظم مباهاتهم إلا قول "العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني وليس منهم إلا من بذل وسعه في المكارم وهكذا تنافس ملوك الطوائف في اجتذاب أرباب الفكر حتى أصبح عدداً رجالهم ومستشاريهم ووزرائهم من العلماء والأدباء مايقارب خمسة ألاف،(الحجي، 1402، 113).

وقد تحدث المؤرخون عن هذا الأمر حيث ذكروا أن ملوك الطوائف كانوا يتنافسون في اجتذاب العلماء والأدباء إلى ممالكهم فقد ذكر ابن خاقان حينما تحدث عن أبي عبيد البكرى أن ملوك الطوائف كانوا ((يتهادونه تهادى المقل للكرى والآذان للبشرى)) كما يذكر ابن بسام أنه حينما قدم الغنى الحصرى إلى الأندلس ((تهادته ملوك الطوائف تهادي الرياض للنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس القديم))،(البشري،1414، 120) فأهتم ملوك الطوائف - برعاية النواحي العلمية، والاهتمام بالعلماء وانهم في كل عصر كانوا عامل استقرار وإصلاح، لمن يأخذ برأيهم ويعطيهم مكانتهم اللائقة بهم هكذا تنافس ملوك الطوائف في تكريم العلم والعلماء ويدرك المتتبع لهذه الظاهرة في عصرملوك الطوائف أن مبعث هذا الاهتمام يعود كون كثير من ملوك الطوائف قد اشتهروا بأنهم من طلاب العلم، وممن يذكر هنا على سبيل المثال المقتدر بالله بن هود، صاحب سرقسطة الذي كان آية في علوم الفلسفة والهندسة، والمظفر ابن الأفطس، ملك بطليوس الذي ألف في فنون الأدب كتاباً قوامه مائة مجلد ولم تشغله الحروب ولا الملك عن همة العلم والأدب أيضاً - ومجاهد العامري، صاحب دانية فقد كان أديب وبرع في علم القرآن وعلم اللسان - ولم يشغله من العلم كثرة ما مارس من الحروب براً وبحراً - حتى صارت المعرفة احدى اركان اهتماماته، (ابن بسام،1339، 21).

كما اشتهر بنو عباد في أشبيلية بحب العلم والعلماء حيث وصف الحميدي محمد بن إسماعيل بن عباد، مؤسس دولة بني عباد في أشبيلية بقوله ((كان له في العلم والأدب باع، ولذوى المعارف عنده سوق آله وارتفاع، وبالإضافة إلى هؤلاء اشتهر عدد من ملوك الطوائف بهذه النزعة العلمية كبني ذي النون في طليطلة، وبنى صمادح في المرية وبني حمود في مالقة وبنى زيرى في غرناطة وغيرهم،(عنان،1389، 430).

ومما لا شك فيه أن هذه الروح العلمية التي اتسم بها عدد من ملوك الطوائف جعلتهم يحرصون على خدمة العلم وتشجيع العلماء، كما دفعت الناس على الحرص في الانتماء إلى شريحة العلماء تأسياً بزعمائهم وذلك لأن "السلطان سوف يجلب إليه ما ينفق لديه" ولعل المناظرة التي جرت بين ابن حزم وأبى الوليد الباجي توضح بجلاء أهمية العلم والعلماء في عصر ملوك الطوائف حيث قال أبو الوليد الباجي لابن حزم:" أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه، وتسهر بمشكاة الذهب، وطلبته أنا أسهر بقنديل بائت السوق، حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة، فأفحمه " (المقري،1388، 77).

المكانة العالية التي تبوأها العلماء في المجتمع الأندلسي

إن علماء الأمة يشكلون شريحة هامة من شرائح المجتمع الإسلامي فهم قادة الأمة الحقيقيون وحسب فتاواهم وتوجيهاتهم يسير الناس، وإذا جنح الناس إلى الفوضى والخروج عن طاعة القيادة السياسية حينما يلحظون عليها انحرافاً أو تقصيرا فإن هذا لا يكون بالنسبة لقادة الفكر الذين ينطلقون في توجيهاتهم للأمة من منطلقات شرعية ولقد أنعم الله على مسلمي الأندلس في عصر ملوك الطوائف بأن قيض لهم علماء ناصحين رفعوا الراية وحاولوا نشر العلم بين الناس مستفيدين في ذلك من الفرص التي أتيحت لهم والتي كان من أهمها الحرية في طرح ما يريدون فضلا عن فرص التنقل بين بلدان ملوك الطوائف دون قيد أو مضايقة ولو حاولنا تتبع هذاالأمر لطال بنا المقام ولكننا سنذكر نماذج لهؤلاء العلماء لنرى

من خلال ما نذكره مدى الاحترام الذي حظوا به آنذاك، وما تمخض عن هذا الاحترام من فرص كثيرة أفادوا منها حيث كان من هؤلاء العلماء أبو الوليد الباجي احد علماء الأندلس المشهورين لا سيما بعد عودته من المشرق حيث كان يطوف بالعدوة الأندلسي متنقلا بين مدنها وأقاليمها المختلفة مثل سرقسطة، وبلنسية، ودانية، وبطليوس وكاس خلال تجواله يقيم حلقات تعليم في مدن مختلفة كما كان يقابل ملوك الطوائف وغيرهم من قادة الأندلس ويدعوهم إلى لم الشمل وجهاد العد (ابن الابار، 1963، 91) وقد ذكر المؤرخون أن الباجي على الرغم من كونه استغل تلك الفرص لدعوة ملوك الطوائف إلى نبذ الفرقة وجمع الكلمة وهو أمر غير محبذ عندهم إلا أنهم أظهروا له الاحترام والتقدير تماشيا مع ما تفتضيه الحال آنذاك من احترام العلماء وتقديرهم.

وفي الحقيقة فإن ملوك الطوائف لم يكتفوا بهذا الأمر بل إنهم كانوا يسعون لكسب رضاه، كما كانوا يتباهون بانحيازه إلى أحدهم حيث يذكر ابي خاقان أن المقتدر بالله بن هود، كان يباهي بالحاشية إلى سلطانه وإيثاره لحضرته باستيطانه، ومن العلماء الذين أظهر ملوك الطوائف احترامهم له أبو محمد بن حزم على الرغم من النقد اللاذع والقوى الذي وجهه إليهم وأن وجودهم أمر غير طبيعي، بل هو من الحوادث الغريبة في التاريخ كما ذكر بأن واقعهم فضيحة لم يقع في العالم مثلها (ابن حزم، 1987، 37) ولم يقف ابن حزم عند هذا الحد بل إنه حمل على ملوك الطوائف بعنف حيث قال، ((والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعا فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس)) ومما لا شك فيه أن هذا الرأي الذي أبداه ابن حزم إزاء ملوك الطوائف كان له أثر قوى في موقف الناس منهم إذ أنه يمثل وجهة نظر عالم مفكر من خيرة علماء الأندلس ومفكريها، ومع أن ما ذكره كان ضربة قوية ضد ملوك الطوائف إلا أنه لم يمسه أذى منهم بل بقى حرا طليقا يجوب بلاد الأندلس ويغشى جميع المنتديات العلمية، وهذا بلا شك دليل واضح على المكانة العالية التي تبرأها العلماء،(ابن خلكان،1967، 219).ويأتى موقف ملوك الطوائف من ابن حيان دليلا آخر على علو المنزلة التي نالها العلماء في ذلك العصر، فبالرغم من نقده القوى ورأيه الواضح في ملوك الطوائف، إلا أنهم أظهروا له التقدير والاحترام حيث سماهم ((بأمراء الفرقة الهمل)) مما أتاح لهم حرية الكلمة والترحال، وهذا مما هيا مناخاً علمياً جيداً في عموم الأندلس.ولم يسلم من نقده حتى ابن جهور والذي يعد بحق من أفضل ملوك الطوائف حيث يذكر ابن سعيد أن ابن حيان ثلب أبا الحزم بن جهور وذكر عدم صلاحيته للملك فلما بلغ أبا الحزم ما قاله قال، ((والله لقد صدق وإني والله ما أصلح لهذا الأمر ولكن مكرها لزمته، وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه فأحضره أبو الوليد وقال، والله لإن طرأ على ابن حيان أمر لا أخذ أحدا فيه سواك أتريد أن يضرب بنا المثل في سائر البلدان بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدنا تحت كنفنا مع أن ملوك البلاد القاصية تداريه وتهاديه ؟ وأنشد له نظما وقال جعله إذا نثر في السماء وإذا نظم تحت تخوم الماء))،(ابن سعيد، 1376، 117). وبالإضافة إلى هؤلاء العلماء فقد كان هناك مجموعة أخرى رفعوا الراية نفسها حيث طافوا ببلاد الأندلس للتوجيه والتعليم والنصح والإرشاد من أمثال عبد البر، وأحمد بن حجاف، ومحمد بن طاهر، وابن بسام وابن عسال وغيرهم، ولقد لقى هؤلاء جميعاً كل احترام وتقدير من لدن ملوك الطوائف بل من كافة شرائح المجتمع الأندلسي، وهذا بلا شك مما هيأ لهم الفرصة جميعاً للتجوال في الممالك الأندلسية لنشر علمهم بين الناس، وقد كان لهذه الميزة التي حظى بها علماء الأندلس آنذاك أثرها الواضح على الحياة العلمية بكل صورها وأشكالها.

هذا عرض موجز لأهم عوامل ازدهار الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، وما من شك في أن هذه العوامل قد تضافرت جميعاً للنهوض بالحياة العلمية في ذلك العصر فالمجتمع الإسلامي بالأندلس وقد تأصل لدى غالب السكان لاندلسيين حب العلم والسعي في طلبه منطلقاً في هذا من منطلقات علمية ادبية، وهذا مما هيأ استعداداً نفسياً قوياً لدى أولئك القوم فأقبلوا على العلم، وطلبه بكل جد ومثابرة. وقد أعانهم على هذا الأمر ذلك الميراث الثقافي الضخم الذي آل إليهم بعد سقوط الدولة الأموية فاستفادوا منه حيث هيأ لهم مناخاً علميا جيدا، كما ساعدهم في الوصول إلى ما يريدون من وسائل العلم والتعليم ومتطلباته. كما كان موقف القادة من العلم والتعليم يعد عاملا قويا ساهم في دفع الحياة العلمية آنذاك وما من شك في أن النزعة العلمية عند أولئك الزعماء فضلا عن الحرص والتنافس في تكريم العلماء هي التي أوجدت ذلك الموقف المشرف والذي يعتبر سمة حضارية ازدان بها عصرهم على الرغم من فرقتهم السياسية التي ضربت أطنابها بينهم.وقد ساعد على ذلك أيضاً تلك المكانة العالية التي نالها العلماء عند كافة فئات المجتمع الأندلسي مما جعلهم ينطلقون في التعليم والتوجيه بكل ما أوتوا من قوة وجهد مستندين إلى تلك الأهداف الشرعية وإلى المكانة العالية وعامة الناس.

المصادر والمراجع

الشنتريني: ابو الحسن علي بن بسام (1339ه)، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة،ط2، دار الثقافة بيروت، لبنان.

ابن بشكوال: ابو القاسم خلف بن عبد الملك، (1966م)، كتاب الصلة،الدار المصرية للتاليف والترجمة،مصر.

ابن حزم الاندلسي:ابو محمد علي بن احمد،(1987 م)، رسائل ابن حزم الاندلسي،ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت.

ابن الخطيب: ابو عبد الله محمد،(1956 م)،اعمال الاعلام في من بويع قبا الاحتلام من ملوك الاسلام.ط2، دار الكشوف،بيروت.

البشري:سعد عبد الله،(1414 ه)، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الاندلس،مؤسسة الملك فيصل، الرياض.

الحجي: عبد الرحمن علي،(1402 ه)،التاريخ الاندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة،ط2، دار القلم، دمشق.

العبادي:احمد مجمد مختار،(1986 م)، دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية،ط2،دار السلاسل، الكويت.

المقري:شهاب الدين ابو العباس احمد،(1942 م)، ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض،

تحقيق، مصطفى الابياري. القاهرة.

جلجل:ابي داوود حسان الاندلسي،(1955 م)، طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد السيد،مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية،القاهرة.

صيبعة:(د،ت)، عيون النباء في طبقات الاطباء، دار الحياة،بيروت

ريبيرا: خوليات، التربية الاسلامية في الأندلس اصولها المشرقية وتاثيراتها الغربية، دار المعارف، القاهرة.

عنان، محمد عبد الله،(1389 ه)، دولة الاسلام في الاندلس،ط2، مكتبة القاهرة، مصر.

عيسى:محمد عبد الحميد،(1982 م)، تاريخ التعليم في الاندلس، ط1،دار الفكر، مصر.